معاركه المظفّرة مهّدت لفتح العراق والخليفة أبو بكر نصبه أميراً على قبيلته

المثنى بن حارثة الشيباني... كاسر خشم الفرس!

أحمد بن محارب الظفيري *

■ تذكر مصادر التاريخ ان معظم قبائل العرب وفدت الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة للهجرة، واعلنت مبايعتها وإسلامها ودخلت هذه القبائل يتقدمها شيوخها وكبراؤها في دين الله أفواجاً أفواجاً وتسمى السنة العاشرة بـ «سنة الوفود».

وجدت الدعوة الإسلامية آذاناً صاغية وقلوباً مفتوحة وحباً صادقاً لدى شيوخ بني شيبان «المثنى ومفروق وهاني والنعمان» ولا تنس ان قبيلة بني شيبان هي الفرع المهم الذي ينتمي إلى أكبر قبيلة عربية في ذلك الزمان وهي قبيلة «بكر بن وائل» حفيدتها الآن قبيلة عنزة الوائلية.

ومن المؤكد ان هؤلاء الشيوخ وجماعتهم بعد رجوعهم الى اهاليهم باشروا بنشر روح الدعوة الإسلامية وتعاليمها السامية بين افراد قبيلتهم والقبائل العربية المجاورة لها. علماً ان أخبار هذا الدين الجديد قد انتشرت في بوادي العرب انتشار النار في الهشيم، لأن مركزها اهم مدينة عند كل العرب وهي «مكة» المكرمة هذه المدينة التي تضم البيت العتيق الذي يحج اليه العرب سنوياً، ورسول الله المكلف بتبليغ هذه الدعوة ينتسب الى قبيلة قريش، هذه القبيلة التي تحتل مركز الصدارة والعراقة والنجابة عند كل قبائل العرب.

اتساع حركة الردة

ومن عجائب المقادير ومصادفات الزمان ان قبيلة بني شيبان التي قابل شيوخها الرسول العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم - نجدها بعد هذه المقابلة بعدة أشهر تخوض اشرس معركة مع قوات كسرى ابرويز «معركة ذي قار» وتنتصر على هذه القوات الكسروية.

وكانت كلمة السر لقبيلة بني شيبان ولحلفائها العرب خلال هذه المعركة هي «محمد يا منصور» ولما وصلت اخبار هذا النصر الى الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - قال: «هذا أول يوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا».

وتؤكد مصادر التاريخ العربي الاسلامي ان اعداداً كبيرة من قبيلة بني شيبان قد دخلت في الدين الاسلامي في اوقات مبكرة ومتقدمة عن غيرها من القبائل الأخرى.

وفي مقدمة هؤلاء شيخ بني شيبان وفارسها ذائع الصيت «المثنى بن حارثة الشيباني».

في أواخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ظهرت بوادر حركة مضادة هي حركة الردة عن الإسلام.

وتوفي الرسول عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين 12 من ربيع الأول سنة 11 هـ، وبعد وفاته بفترة قصيرة اتسع نطاق هذه الحركة المضادة، حيث ارتدت بعض قبائل العرب عن الإسلام بتوجيه من شيوخها، والبعض الآخر من شيوخ هذه القبائل وضع شروطاً عدة للرجوع الى الإسلام من أهمها الامتناع عن تأدية الزكاة.

ولكن خليفة المسلمين أبا بكر الصديق «عتيق بن ابي قحافة عثمان بن عامر» رضي الله عنه - رفض كل شروط المرتدين رفضاً قاطعاً وقال كلمته الشهيرة الخالدة: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونها الى رسول الله لقاتلتهم على منعها حتى يؤدوها».

وباعت قبيلة بني شيبان من بواديها المتاخمة للعراق بزعامة شيخها المثنى بن حارثة الشيباني واخويه المعنى ومسعود واعلنت الولاء والطاعة لخليفة المسلمين، فوزعهم الخليفة ابو بكر الصديق مع الجيوش التي جهزها لمحاربة هؤلاء المرتدين التي يقودها كبار الصحابة. وهذه الجيوش هي:

1 - جيش خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي «سيف الله المسلول» توجه هذا الجيش لمحاربة قبيلة بني اسد وشيخيها طليحة بن خويلد الاسدي ومالك بن نويرة الاسدي.

2 - جيش عكرمة بن ابي جهل والشرحبيل بن حسنة، توجه لمحاربة قبيلة بني حنيفة وشيخها مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الذي ادعى النبوة فسمي «مسيلمة الكذاب».

3 - جيش العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي المعروف باسم «العلاء الحضرمي» توجه الى البحرين يرافقه المثنى بن حارثة الشيباني لمحاربة زعماء الردة هناك وابرزهم شريح بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد المسمى بـ «الحطم» وهو شيخ قبيلة بني ربيعة.

4 - جيش عمرو بن العاص، توجه هذا الجيش لمحاربة قبيلة قضاعة.

وتمكنت جيوش الإسلام بعد معارك ضارية شرسة من إخماد حركة الردة والقضاء عليها نهائياً وبذلك تم بعون الله توحيد جزيرة العرب بشراً وارضاً تحت راية الإسلام العظيم.

المثنى الشيباني يطلب الامارة

بعد الانتهاء من حروب الردة اجتمع المثنى بن حارثة الشيباني مع خليفة المسلمين ابي بكر الصديق، وشرح له اوضاع الدولة الفارسية التي تحكم العراق، لأنه اعرف بها من غيره حيث تقطن قبيلته في البادية المتاخمة لسواد العراق. وتذاكر مع الخليفة كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام الذي ارسله الى كسرى ابرويز ملك الفرس، الذي نصه ما يلي: «من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وامن بالله ورسوله، وادعوك بدعاية الله عز وجل فإني رسول الله الى الناس كافة ولأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، واسلم تسلم، فإن توليت فإن اثم المجوس عليك».

وكان جواب كسرى على الكتاب انه مزقه بعد قراءته واقسم ليزلن عقابه بالنبي الأمين عليه الصلاة والسلام، فنزل غضب الله عليه اذ اغتاله ابنه «شيرويه» ونصب نفسه ملكاً بدلاً من ابيه المقتول، واستأذن المثنى من خليفة المسلمين السماح له بالرجوع الى ديرته، وطلب منه كتاباً صريحاً بتنصيبه اميراً على قبيلته وعلى المسلمين الذين في ناحيته وان يفوضه بنشر الاسلام ومحاربة اعدائه، فحصل المثنى على عهد مكتوب من الخليفة يتضمن ما طلب وفقاً لتوجيهات وارشادات خليفة المسلمين وبذلك ضمن الشرعية لكل ما يقدم عليه من أعمال وتصرفات وفق المنظور الاسلامي الشرعي، وبهذه الحالة اصبح محاسباً امام ولي الامر رئيس حكومة المسلمين «الخليفة» على كل ما يتعلق بشؤون إدارته للعباد والبلاد في منطقة إمارته... وعليه اخذ الاذن المسبق من الخليفة قبل الشروع في تنفيذ أي امر خطير ينوي القيام به.

معارك المثنى مهدت لفتح العراق

1 - معركة مدينة «دهشتاباذ اردشير»:

بعد رجوع المثنى الى باديته المتاخمة للفرات الاوسط والجنوبي، ابتدأ بالمناوشات والمعارك مع الحاميات الفارسية المبثوثة على خط التماس بين المياه والصحراء، وكانت أولى هذه المعارك هي معركة «دهشتاباذ اردشير» وتقع هذه المدينة شرق مدينة الزبير الحالية، حيث يوجد في هذه المدينة «مسلحة» فارسية متقدمة مهمتها الاستطلاع وحماية الطريق المؤدي الى الميناء الفارسي المهم الموجود في مدينة الابلة من غارات بعض القبائل العربية الآتية من الصحراء.

كثرت المعارك على أرض «دهشتاباذ أردشير» فخربت وصار اسمها «المدينة الخربة»!

وبعد رجوعه من الحجاز هجم المثنى على حامية هذه المدينة وتمكن من دحر قواتها المرابطة بها، ودخل المدينة وسيطر عليها، وبذلك انفتح امامه الطريق الاستراتيجي لمدينة الابلة. وسمى العرب مدينة «دهشتاباذ اردشير» فيما بعد بـ «الخربة» وذلك لكثرة المعارك التي تعاقبت عليها عبر السنين اللاحقة لأنها اصبحت مدينة خربة.

ويذكر ياقوت الحموي (ت 626 هـ) في كتابه «معجم البلدان» ان «دهشتاباذ اردشير» مدينة قديمة من مدن الفرس خربها المثنى بن حارثة الشيباني بكثرة شن الغارات عليها، وحول «الخربية» ابتنى العرب المسلمون مدينة البصرة في السنة الرابعة عشرة للهجرة، واول من بناها القائد المسلم عتبة بن غزوان بن جابر بامر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

2 - معركة مدينة الابلة Apollogas، والابلة ميناء قديم جداً يقع على شط العرب ويسمى «ثغر الهند» ذكره الرومان واليونانيون وغيرهم. وفي الابلة جيش فارسي كبير مهمته حماية المدينة وميناؤها الشهير. ولقد تمكن المثنى بجيشه الاسلامي المكون من قبائل العرب من احتلال هذه المدينة بعد معركة عنيفة واسر اعداداً كبيرة من الجيش الفارسي وحصل على غنائم كثيرة، وبذلك تعززت معنويات الجيش الاسلامي على الرغم من قلة عدده وعدته.

3 - حصار مدينة الحيرة.

الحيرة مدينة كبيرة تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات «جنوب غربي مدينة الكوفة التي لم تبن آنذاك» ويقال ان اسمها آرامي هو «حيراتو أو حيرتو» ومعناه الحصن أو المعسكر ونحن نقول، ان «الحيرة» و«الحاير» في القواميس وعند بدو الجاهلية وبدو اليوم تعني «حيرة الماء» عندما يتوقف عن الجريان ويحير في مكانه.

وفي عصرنا الحالي يوجد عدة بلدات تحمل اسم الحيرة والحاير مثل بلدة «حيرة السوبان» وبلدة «حايرينبع» في السعودية ومن حيرة الماء نقول، «فلان في حيرة من أمره» أو «فلان محتار».

توجه المثنى بن حارثة الشيباني بجيشه وحاصر هذه المدينة مدة من الزمن ولكنها لم تسقط، حيث تعذر عليه احتلالها بسبب ضخامة اسوارها العالية، والحيرة كما نعلم هي مدينة المناذرة اللخميين ملوك العرب في الجاهلية.

ولكن الشيء المؤكد أن اكثر القبائل العربية المتجولة بين «الذاري والجاري» قد أصبحت مسلمة تدين بشريعة الاسلام وتأتمر بامر المثنى الممثل الشرعي للحكومة الاسلامية في الحجاز.

وتمكن المثنى بكل جدارة وفعالية من قيادة هذه القبائل التي استطاعت بتوجيه من شيخها المثنى كسر هيبة الامبراطورية الفارسية بكثرة الغزوات المستمرة والمتلاحقة على مدن الفرس وقواعدهم العسكرية المبثوثة حول حوض الفرات.

ومصطلح «الذاري والجاري» لايزال مستخدماً عند عربان بادية اليوم.

«الذاري» من ذرا يذرو والمقصود به «الرياح الذواري» التي تذرو الرمال وهي كناية للصحراء الرملية «منطقة الطفوف او الرحاب» الواقعة غرب الفرات والتي تصب فيها وديان الهضبة النجدية.

أما «الجاري» فهي من جرى يجري، فالمقصود به نهر الفرات الواقع شرق الصحراء الرملية.

المثنى يسافر الى الحجاز لمقابلة الخليفة.

بعد هذه الانتصارات الباهرة التي وصلت اخبارها الى رئيس الحكومة الاسلامية أمير المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، سافر المثنى بطلب من الخليفة الى المدينة المنورة وهناك قدم شرحاً وافياً عن الوضع بالعراق وعن الصحراء المتاخمة له وعن اوضاع الدولة الفارسية التي يخبرها جيداً بحكم جوار قبيلته لها، وطلب من الخليفة، العمل باسرع وقت ممكن لإرسال الجيوش الإسلامية لفتح العراق فالوضع هناك مهيأ للفتح وتدرير البشر من ظلم الامبراطورية الفارسية.

رجع المثنى الى باديته المتاخمة لسواد العراق واستمر بمواصلة الغزوات والغارات المفاجئة على حاميات الفرس ولما تباطأ وصول الامدادات الإسلامية التي وعده الخليفة بارسالها إليه، ارسل اخاه مسعود بن حارثة الشيباني الى المدينة المنورة ليحث الخليفة أبا بكر الصديق على تنفيذ وعده بأسرع ما يمكن، لان الوضع في العراق لا يحتمل التأخير والناس في العراق يترقبون وصول الجيش الاسلامي الرسمي الذي يتصدره صحابة رسول الله.

الخليفة يصدر أمر التحرك الى العراق

أصدر أبوبكر الصديق خليفة رسول الله، أمره الى سيف الله المسلول خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي بأن يتحرك بجيشه المكون من عشرة آلاف مقاتل من البحرين ويتجه مباشرة الى العراق، وكان خالد قد انتهى لتوه من القضاء على حركات الردة في اليمامة والبحرين. وعهد الخليفة الى خالد بن الوليد بالقيادة العامة على كل الجيوش الاسلامية التي تحارب في العراق والمتجهة اليه، وطلب من المثنى أن يكون تحت امرة خالد وان يمحضه النصح في كل ما يتعلق بالعمليات الحربية لانه اعرف الناس بالعراق واهل العراق، وتقبل المثنى رضوان الله عليه أمر الخليفة باخلاق العربي المسلم الذي همه في الحياة نصرة الدين الجديد والفوز بالجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

خليفة المسلمين وزّع المثنى وإخوته على أربعة جيوش خاضت حروباً لردع «المرتدين»!

وصدر الأمر الثاني من خليفة المسلمين الى عياض بن غنم يأمره بالتوجه الى العراق والانضمام الى جيش خالد بن الوليد بعد ان ينتهي من حربه على دومة الجندل (مدينة الجوف حاليا تقع بالمملكة العربية السعودية)

وفي دومة الجندل يوجد طوائف كثيرة من العرب المتنصرة يتزعمهم اكيدر بن عبدالملك وأكثر هذه الطوائف كانت من اهل الردة التي ناصبت الاسلام العداء.

معركة ذات السلاسل في كاظمة

بعد صدور أمر الخليفة أبي بكر الصديق، تحرك خالد بن الوليد المخزومي بجيشه الضخم المكون من عشرة آلاف مقاتل، وكان يسير على جادة المياه- مثلما يسير عرب اليوم عليها بقوافلهم- المتجهة للعراق الجنوبي، ويرافقه مع جيشه امهر الأدلاء العرب وعلى رأسهم رافع بن عميرة الطائي خبير المسالك والدروب، ويظهر من سياق الحركة انه بعد ان قرب من منطقة الأحداث، عسكر بجيشه على مجموعة الآبار المتقاربة وهي قلبان الوقبى وعددها اربعة (مازالت معروفة بنفس الاسم) وعلى قلبان الفردوس (تغير اسمها الى الدليمية نسبة الى صاحبها دليم بن خويط السعيدي الظفيري) وعددها ثلاثة وقليب الجليدة (مازالت بنفس الاسم)، وكل هذه القلبان (الآبار) المتقاربة تسمى الآن بـ «طوال الظفير» وهي عدود عميقة مياهها لا تنضب، وتقع شمال بلدة دفر الباطن (لم تكن موجودة في ذلك الزمان).

وفي الوقت الذي كان فيه خالد مخيماً على هذه الآبار التحقت به قوات القبائل بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني، وجاءت اعداد كبيرة من بادية تميم أهل الإبل تعلن الولاء والطاعة. وباشر خالد باستخدام الطريقة الإسلامية المعتادة في مثل هذه الظروف، حيث ارسل للقائد الفارسي هرمز الرسالة التالية: «اما بعد فاسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة». كان رد هرمز هو القتال وبعد ان وصلت أخبار تحرك الجيش المسلم الى كسرى الفرس الملك أردشير، كلف امهر قادته في المنطقة الجنوبية من العراق وهو المسمى (هرمز) بتحشيد قوة فارسية كبيرة بلغ تعدادها عشرين ألف مقاتل لطرد العرب المسلمين والدفاع عن منطقة النفوذ الفارسي.

وبحركة بارعة نشر القائد هرمز قواته على آبار سفوان (مازالت تحمل الاسم نفسه) وعلى آبار سيف الكواظم (مازالت تحمل الاسم نفسه) وآبار الحفير (آبار في شعيب الباطن قرب جبل سنام) وبذلك تمكن من احتلال كل آبار المياه الواقعة في طريق جيش خالد بن الوليد.

تبديد جيش الفرس

وبعد ان استراح خالد وجيشه على هذه القلبان المتقاربة والبعيدة نسبيا عن خط التماس مع العدو وعن ارض المعركة المحتملة عدة أيام، قسم جيشه الى ثلاث فرق جعل المثنى بن حارثه الشيباني على رأس واحدة، وعدي بن حاتم بن عبدالله الطائي ومعه عاصم بن عمرو التميمي على رأس الفرقة الثانية، وقاد خالد بنفسه الفرقة الثالثة. وطلب من فرقه الثلاث السير بطريقة التتابع، كل واحدة تسير بعد الأخرى بيوم. ويظهر من طريقة التقسيم هذه انه حسب لموارد المياه التي أمامه الحساب اللازم في مثل هذه الظروف. فالمعروف ان كل الآبار التي سيمر بها في بطن وادي فلج- ويسمى ايضا وادي الرمة- هي أحسا (أبلغة بدو اليوم حسيان) وهي آبار قليلة العمق تنضب مياهها بسرعة.

وعلى أرض كاظمة- في الكويت- دارت المعركة وتاريخا في 12هـ، مارس 633م واستمرت المعركة طيلة النهار وحتى الليل وتمكن خالد بن الوليد من قتل هرمز قائل الجيش الفارسي.. وانتهت المعركة بتبديد الجيش الفارسي وانهزام المتبقي منه.

وبعد أنتهاء المعركة صدر الأمر من خالد بن الوليد القائد العام لجيش المسلمين الى شيخ بن شيبان المثنى بن حارثه الشيباني، بمواصلة المطاردة للقوات الفارسية المنهزمة، فاندفع بمطاردته لهذه القوات حتي جو به بحصن كبير ممتلئ بجنود الفرس تقودهم أميرة فارسية تتحصن بهذا الحصن.. وأطلق العرب على هذا الحصن اسم (حصن المرأة).

أمر المثنى شقيقه المعنى بن حارثه الشيباني بمحاصرة حصن المرأة من كل الجوانب واندفع هو وقواته متوغلا داخل الأرياف الزراعية فاصطدم بحصن آخر يتحصن فيه احد امراء الفرس مع حاميته العسكرية، وهذا الأمير الفارسي هو زوج المرأة أميرة الحصن الأول (حصن المرأة)، فاقتحم المثنى هذا الحصن وقتل أميره الفارسي وأكثر أفراد حاميته. ولما علمت أميرة الحصن الأول بمقتل زوجها استسلمت للمعنى بن حارثه الشيباني فاسلمت على يديه وطلبت منه ان يتزوجها فتزوجها المعنى بناء على رغبتها.

معركة المذار

بعد الخسائر الفادحة التي تكبدها الفرس في معركة ذات السلاسل وما تبعها من مطاردات امر كسرى الفرس (أردشير) بتجميع قوات كبيرة يتراوح عددها بين ثلاثين واربعين ألف مقاتل وعين قائده المجرب (قارن بن قرباس) قائدا عاما لهذه القوات الكبيرة يساعده في القيام ابناء الملك وهما: (قباذ بن أردشير) و (انوشجان بن أردشير).

وتجمعت هذه القوات الكبيرة في مكان يقال له (المذار) بعض المؤرخين يجعل هذا المكان قريبا من منطقة شرائع (اهواز) مياه الفرات الجنوبية شمال الأبلة، وبعضهم يجعله قريبا من مياه نهر دجلة في شط العرب- أي شمال مدينة القرنة الحالية-.

والشيء الثابت والمؤكد ان ارض المعركة طينية مائية يكثر فيها النخيل والمزارع، ويكثر بها القصب والبردي، وهي مخالفة لطبيعة الصحراء التي يعيش بها العرب ودوابهم.

ومن بديهيات الأمور في مثل هذا الموقع ان يجتمع قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد مع شيوخ عرب العراق وعلى رأسهم الصحابي الجليل شيخ عرب بني شيبان المثنى بن حارثة الشيباني، ويرسم خطة الحرب بمشورتهم لأنهم اعرف الناس بالفرس وبارض العراق، فاتخذ خالد مع هيئة أركان حربه قرارا بقتل قادة الفرس منذ البداية الأولى للمعركة- أن اصبح ذلك ممكنا- لأن المعروف عن الفرس ان في قتل قادتهم يتضعضع جمعهم ويتبدد شملهم.

وفي سنة 12هـ، ابريل (نيسان) 633م (التاريخ تقديري) اندلعت معركة المذار، فاندفع خالد بقواته بسرعة هائلة واستخدم طريقته المعهودة التي استخدمها في حروب الردة وهي الضربة المفاجئة المتواصلة الشديدة واندفع مسرعا على جواده نحو قائد الفرس قارن بن قرباس ولكن سبقه بالاندفاع معقل بن الاعشى فقتل قارن، كما اندفع عاصم بن عمرو التميمي وعدي بن حاتم الطائي على القائدين الآخرين ولدي الملك (كسرى) وهما قباذ بن أردشير وانوشجان بن أردشير فقتلاهما.

فانبلج ليل المعركة عن نصر مؤزر لخالد وجيشه، وانهزم من بقي من الفرس على قيد الحياة بواسطة السفن هاربين الى الجهة الثانية من النهر.

وتنفيذا للأمر الثابت المكلف به كل قائد مسلم من قبل خليفة المسلمين وهو المواظبة الدائمة على ارسال البريد اليومي للخليفة. ارسل خالد بريده الى مرجعه الأعلى خليفة رسول الله أبي بكر الصديق وارفق مع البريد الغنائم الكبير، فلما وصلت هذه الى المدينة المنورة وتسلمها ابو بكر الصديق قال كلمته الشهيرة مادحا خالد. (عجزت النساء أن تلد مثل خالد).

* باحث في التاريخ والتراث
ah_mhareb@maktoob.com